

# مذكرات أبو إبراهيم الكبير

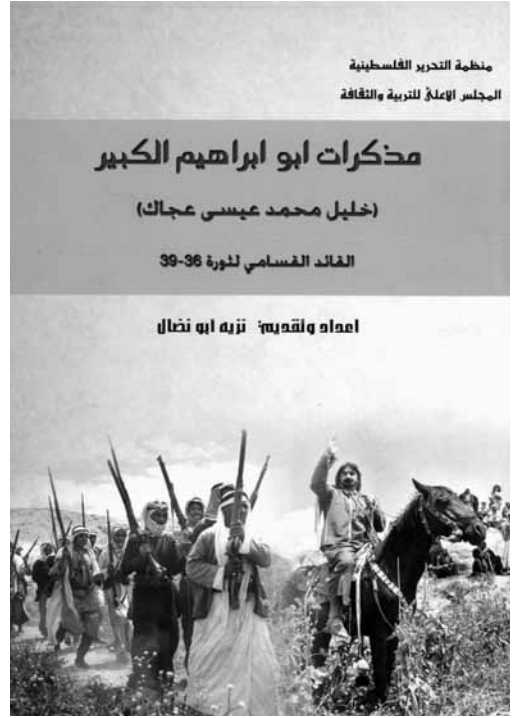
(خليل محمد عيسى عجاك)<sup>١</sup>

سميح حمودة

ضمن أعمال التاريخ الشفوي، فهو يستند إلى ذكريات أبو إبراهيم الكبير، التي تمّ تسجيلها في العراق قبل سنتين من وفاته، عام ١٩٧٧. قام الكاتب غطاس صويص، المعروف بنزيه أبو نضال، بتحويل هذه التسجيلات الصوتية إلى هذا الكتاب المطبوع. فقام، كما شرح في مقدمته، بتدقيق المعلومات ومراجعتها، وبعمليات توثيق وفق المصادر العلمية التاريخية والمؤكدة، و«كذلك بالبحث عن التقاطعات مع ما صدر لاحقاً من مذكرات ومؤلفات وأبحاث وشهادات تتصل بهذه المذكرات»<sup>٢</sup>.

يحتلّ الكتاب أهميته من طبيعة نشاطات صاحب الذكريات ومواقفه، ومن أهمية الدور الذي أدّاه في التاريخ الكفاحي للشعب الفلسطيني. فقد كان شخصية عسكرية بعيدة عن الصراعات السياسية، التي طغت على المجتمع الفلسطيني في عهد الانتداب البريطاني، وذكرياته لم تتلونّ أو تصطبغ بتأثيرات هذا الصراع؛ فهو لم يخلق روايات كاذبة ليمجّد بها زعيماً أو حزبا سياسيا دون آخر. كان أبو إبراهيم الكبير من المقرّبين من الشيخ عز الدين القسام، ومن مؤسسي العصبة الثورية القسامية، ومن مفجّري الثورة العربية الكبرى (١٩٣٦-١٩٣٩) ومنظميها، وأحد أبرز قادتها في منطقة الجليل. حيث قامت الثورة في نيسان/أبريل ١٩٣٦ بعد استشهاد القسام وثلاثة من رفاقه في ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٥، كما أنّه (أبو إبراهيم الكبير) من المقاتلين القادة في أثناء الحرب العربية الصهيونية عام ١٩٤٨. يسرد الكتاب رواية أبو إبراهيم الكبير للمحطات الأساسية في حياته:

- يتحدث بداية عن طفولته وشبابه، وتعرّفه بالشيخ القسام، وانضمامه إليه؛ من أجل تأسيس عصبة ثورية تقاوم الإنكليز الصهاينة.
- ثمّ يسرد ذكرياته عن دوره في الثورة الكبرى، وآرائه حول أحداثها، ويتطرق إلى علاقات المقاتلين والاقترصاص ممن اشتبهوا بالتجسس. ويذكر تفاصيل مهمة حول الثورة المضادة، التي نظّمها فخري النشاشيبي، وضمّ إليها بعض القادة والمقاتلين السابقين، مثل فخري عبد الهادي.
- وينتقل أبو إبراهيم الكبير بعدها إلى الحديث عن تجربته في ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية، فيزودنا بمعلومات مهمة عن دور الفلسطينيين في



يضمّ الكتاب ذكريات المجاهد القسامي خليل محمد عيسى، الذي عُرف خلال الثورة العربية الكبرى (١٩٣٦-١٩٣٩) بلقب أبو إبراهيم الكبير، تمييزاً له عن توفيق الإبراهيم، مجاهد قسامي آخر من قرية إندور، قضاء الناصرة، عُرف بلقب أبو إبراهيم الصغير. يقع الكتاب

١ نزيه أبو نضال (إعداد وتقديم). «مذكرات أبو إبراهيم الكبير (خليل محمد عيسى عجاك) القائد القسامي لثورة ٣٦-٣٩» (رام الله: المجلس الأعلى للثقافة والفنون في منظمة التحرير الفلسطينية، د.م.ن. ٢٠١٠). ١٤٢ صفحة.

أثنائها، وعن علاقتهم بالألمان، وعن موقفهم من الصراع الذي دار وقتها بين الحاج أمين الحسيني والزعيم العراقي، رشيد عالي الكيلاني. ويختم بالحديث عن دوره في القتال، ضمن صفوف جيش الإنقاذ خلال حرب ١٩٤٨، ويتحدث عن بعض المعارك والأحداث، ويتناول مشاكل هذا الجيش، ويعرض نقاط ضعفه وأسباب فشله في الدفاع عن فلسطين، ثم يتطرق إلى مساعيه بعد النكبة في مساعدة اللاجئين الفلسطينيين، واستئناف القتال ضد الصهاينة.

## سيرة حياة «أبو إبراهيم الكبير»

يسرد الكتاب سيرة موجزة لحياة أبو إبراهيم الكبير،<sup>٢</sup> وهي حياة فلسطيني بسيط، ينحدر من أسرة فلاحية من قرية المزرعة الشرقية، ولد في أواخر القرن التاسع عشر في مدينة حيفا، حيث كان والده قد انتقل إلى العمل فيها، ثم انتقلت العائلة وهو في سن السادسة، إلى شفاعمرو للعمل في الزراعة، ووجد نفسه وهو دون سن الخامسة عشرة مضطراً للعمل في الفلاحة، من أجل إعالة أسرته نظراً إلى وفاة والده، وسجن أخيه الأكبر بسبب حادثة دهس، وكان هذا في بداية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤، وبقي مسؤولاً عن أسرته إلى أن خرج أخوه من السجن مع انتهاء الحرب سنة ١٩١٨. في سنة ١٩٢٠، عادت العائلة إلى حيفا، فعمل موظفاً في دائرة البريد، ثم فتح محلاً لبيع الصوف والخيش والحبوب. وهناك تعرّف سنة ١٩٢٧ إلى الشيخ القسام، وأصبح من المترددين على دروسه ومجالسه، وفي العام التالي، بدأ الرجلان بناء تنظيم ثوري مسلّح، الذي قام بعدة عمليات خلال السنوات ١٩٢١-١٩٢٣، وقد اعتقل الإنكليز أبو إبراهيم الكبير سنة ١٩٣٤، مدّة تسعة أشهر لاشتباهم بعلاقته بعملية فدائية، نفذتها مجموعة قسامية، ولكنّ القضاء برأه من التهم، لعدم وجود أدلة ضده. فجرّ القساميون الثورة العربية الكبرى سنة ١٩٣٦، عقب استشهاد شيخهم وقائدهم القسام في تشرين الثاني ١٩٣٥، وقد كان أبو إبراهيم الكبير من المشرفين مع الشيخ فرحان السعدي على تفجير الثورة وتنظيمها وقيادة عدد كبير من فصائلها المقاتلة. وبعد انتهاء الثورة مع قيام الحرب العالمية الثانية توجه إلى سورية، ثم إلى العراق مرافقاً للثوار والسياسيين الذين لجأوا إليها

بعد أن أخذت السلطات الفرنسية تضايقهم في سورية ولبنان بعد تحالفها مع بريطانيا في الحرب ضدّ ألمانيا. وفي العراق شارك أبو إبراهيم الكبير في ثورة الجيش العراقي ضد البريطانيين، التي قامت في أيار عام ١٩٤١ بزعامة رشيد عالي الكيلاني، وبمشاركة فعّالة من المفتي الحاج أمين الحسيني ومن معه من الفلسطينيين. ومع فشل الثورة لجأ أبو إبراهيم الكبير إلى شتورة في لبنان، ثمّ توجه إلى ألمانيا، فتدرب مع الجيش الألماني، وقاتل في الجبهة الروسية، ومع هزيمة ألمانيا عاد إلى لبنان ثم إلى سورية، بقي هناك إلى أن صدر قرار تقسيم فلسطين سنة ١٩٤٧، فانخرط في صفوف جيش الإنقاذ قائداً لمجموعة فلسطينية، تحت إمرة أديب الشيشكلي، وقد نشأ نزاع بينهما نتيجة لما اعتبره أبو إبراهيم الكبير تقصيراً وتهاوناً من الشيشكلي، خلال الهجوم على مستعمر جديّن في ٢١ كانون الثاني/يناير ١٩٤٨. لجأ بعد النكبة إلى دمشق، لكنه تعرض لمضايقات من أتباع الشيشكلي، فارتحل إلى عمّان، وبقي فيها إلى أن توفي عن عمر يناهز الثمانين عاماً سنة ١٩٧٩. عاش أبو إبراهيم في عمّان فقيراً، وعمل مدة بائعاً متجولاً على عربة صغيرة.<sup>٤</sup> ترسم رواية الكتاب لحياة أبو إبراهيم الكبير صورة مجاهد ذي شخصية عصامية ونزيهة، وصاحب التزام عالٍ في الدفاع عن الوطن العربي بأكمله ضد الغزو الاستعماري الأوروبي، الفرنسي والبريطاني، ويتمتع بدرجة عالية من الحكمة وبُعد النظر، ممّا جنبه الوقوع في أخطاء وقع بها قادة آخرون من قادة الثورة، خصوصاً في موضوعي المال واغتيال المشتبه بتعاونهم مع السلطات البريطانية. والمُطلع على تاريخ الثورة الفلسطينية الكبرى، يعرف أنّ الكثير من قادتها، ومنهم قساميون، وقعوا في إحدى هاتين المشكلتين أو في كليهما؛ فمنهم من استخدم أساليب الغضب والإكراه للحصول على المال من الفلاحين الفقراء، ومن أهل المدينة سواءً متوسطي الحال أو الأغنياء منهم، فيشير بالنقد إلى كل من عارف عبد الرزاق ونائبه فارس العزّوني وجماعتهم، الذين نشطوا في منطقة طولكرم وقلقيلية ومغاريب نابلس، وتورطوا في ممارسات سيئة ضد الأهالي، ومنها غصب المال والقتل والتعذيب. والمعروف أنّ عدداً من قادة الثورة تورّط في عمليات اغتيال لأشخاص لم يكن لهم أية صلة غير شريفة بالإنكليز أو الصهاينة، بل كان قتلهم بسبب معارضتهم لزعامه الحاج أمين الحسيني. الواضح أنّ أبو إبراهيم الكبير، رغم علمه ومساهمته في التخطيط لاغتيال

٤ هذه المعلومة لم ترد في الكتاب. لكنّي أعرفها من معاصرين له خلال وجوده في عمّان.

متعاونين كبار مع الإنكليز، مثل حليم بسطة وأحمد نايف، اللذين ساعدا في الكشف عن المجاهدين، وساهما في قتل الشيخ القسام ورفاقه، إلا أنه وقف ضد اغتيال من لم يثبت تورطهم في الخيانة الواضحة، أو من كان بالإمكان ردعهم وإبعادهم عن العمل لمصلحة الإنكليز.

وأنصاره في الترقية؛ والتخاذل عن القتال وعدم الالتزام بالخطة المتفق عليها؛ والاستهانة بقدرات الصهاينة العسكرية؛ والقيام بأعمال مخالفة للدين والانضباط العسكري، مثل إقامة حفلة لشرب الخمر في معسكر التدريب، اشترك فيها الشيشكلي وكبار معاونيه.

## إضاعات مهمة

## ملاحظات تصحيحية

يزودنا الكتاب بمعلومات مهمة فيما يتعلق بشأن العصبية القسامية، من حيث: بنيتها الداخلية وبالأخص كيفية تشكلها؛ ومن أي الفئات الاجتماعية كان أعضاؤها؛ وكيف تدربوا وتسلحوا ومن أشرف على تدريبهم؛ ويتناول بعض أعمالها الفدائية؛ والآثار التي ترتبت على هذه الأعمال؛ ويبيّن دور أبو إبراهيم الكبير في العصبية، وآراءه في خروج القسام من حيفا أواخر ١٩٣٥، الذي اعتبره خروجاً مبكراً وغير متناسب مع قدرات العصبية التسليحية.

لا شك أنّ معدّ الكتاب قد بذل جهداً عظيماً ومشكوراً في إضافة هذا الكتاب إلى مصادر التاريخ الفلسطيني، وقام، اعتماداً على إقراره بمشاكل التاريخ الشفوي، بوضع تصحيحات لرواية أبو إبراهيم الكبير لبعض الحوادث، التي خالف فيها مصادر منشورة وموثوقة، أو وقع فيها بأخطاء، جزاء نسيان بعد مرور عقود من الزمن، بين وقت تسجيل الذكريات عن هذه الأحداث وزمن وقوعها. ولكن بقي في الكتاب عدد من القضايا والتناقضات والأخطاء الأخرى لم يلتفت إليها معدّ الكتاب، فلا بدّ من وضع النقاط على الحروف بشأنها، ومنها:

توضّح رواية أبو إبراهيم الكبير جوانب من العلاقة التي كانت قائمة بين كل من القسام ورأس القيادة السياسية، الحاج أمين الحسيني، ويشير إلى ما تذكره أغلب المصادر من رفض الأخير الاشتراك مع القسام في إعلان الثورة ضد الإنكليز سنة ١٩٣٥، ثمّ يتطرق إلى العلاقة التي قامت بين القيادة السياسية وعصبية القسام بعد قيام الثورة، بحيث سلّمت عصبية القسام الشؤون السياسية إلى القيادة السياسية، والتزمت قراراتها، كذلك. في سرده لتجربته في ألمانيا، يبدو أبو إبراهيم الكبير مهتماً بفلسطين فقط، فلم تكن هذه المرحلة من حياته إلا من أجل الاستعداد والتهيؤ العسكري للدفاع عن الوطن ضد الهجمة الصهيونية والاستعمار البريطاني، وهو يعترف باستفادته من هذه التجربة، وتعلّمه من النظام العسكري الألماني واكتسابه الخبرة في هذا المجال. وحين يتحدث عن الخلاف بين المفتي ورشيد عالي الكيلاني، يعود ليؤكد أنّ ما يهمه هو فلسطين، لذا فهو لا يستطيع تأييد الكيلاني ضد المفتي لأنّ هذا سيضر في القضية الفلسطينية. وحين يكتشف أبو إبراهيم الكبير أنّ ألمانيا انهزمت، ولم يعد هناك مجال للاستفادة منها، يقرر الانسحاب والعودة إلى الوطن العربي.

- الخط المتكرر بين اللجنة العربية العليا، التي تشكلت من رؤساء الأحزاب الفلسطينية عقب نشوب الثورة الكبرى سنة ١٩٣٦؛ والهيئة العربية العليا، التي تشكلت عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥.

- الخط بين أحداث حصلت خلال الثورة الكبرى وأخرى حدثت خلال حرب ١٩٤٨، فيورد عن قادة الثورة الكبرى، ويذكر أنّ إبراهيم أبو دية كان واحداً منهم قائداً في الخليل، ويتحدث عن إصابته بجراح في إحدى المعارك، وعلاجه في بيروت، ثمّ وفاته بعد ذلك بمدة. والمعروف أنّ أبو دية كان صغير السن خلال الثورة الكبرى، فهو من مواليد ١٩٢٠، وإصابته لم تكن في الثورة الكبرى، بل كانت في معركة رامات راحيل، التي حدثت بتاريخ ٢٠ أيار/ مايو ١٩٤٨، فتوفي من جرائها في بيروت بتاريخ ٦ آذار/مارس ١٩٥٢.

- اختلاط تسلسل الأحداث في الرواية، ومن ذلك قول أبو إبراهيم الكبير إن الهيئة العربية الكبرى، وهو يقصد اللجنة العربية العليا، كانت قد غادرت القدس إلى بيروت عندما تفاقمت الأحداث واشتعلت نار الثورة، ومن هناك تولّت النواحي السياسية في

يزودنا أبو إبراهيم الكبير بصورة من الداخل عن وحدة جيش الإنقاذ، التي عمل معها وكانت تحت قيادة القائد السوري أديب الشيشكلي، وهي صورة سلبية بكل تأكيد، فيشير إلى جملة من الأخطاء التي رافقت عمل الجيش في فلسطين، ومنها محاباة الشيشكلي لأخيه

الثورة، ومن هناك أيضاً اتفقت مع فوزي القاوقجي للاشتراك في الثورة<sup>٦</sup>. والمعروف أن رئيس اللجنة العربية العليا، الحاج أمين الحسيني، غادر فلسطين هرباً من الإنكليز في شهر تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٧، بينما كان الاتفاق مع القاوقجي، قد تمّ قبل ذلك بنحو عام وثلاثة أشهر.

ومن ذلك أيضاً، اختلاط الرواية المتعلقة بانضمام فخري عبد الهادي إلى فصائل السلام؛ إذ يقول أبو إبراهيم إنّ الأخير اختلف مع الحاج أمين وغضب منه، واجتمع مع القادة القساميين، خليل محمد عيسى (أبو إبراهيم) والشيخ عطية، ومع عبد الرحيم الحاج محمد وعارف عبد الرازق، وطلب منهم أن لا «يتعرفوا على الهيئة العربية وعلى الحسينيين». ولما لم يقبل هؤلاء كلامه ولا الرجوع معه رجع وحده<sup>٧</sup>. والمعروف أن فخري عبد الهادي غادر دمشق عائداً إلى فلسطين بتاريخ ٢١ أيلول/سبتمبر ١٩٣٨، ليعبر نهر الأردن بتاريخ ٢٧ أيلول/سبتمبر ١٩٣٨، وفي هذا الوقت لم يكن الشيخ عطية على قيد الحياة، إذ استشهد في ٤ آذار/مارس ١٩٣٨ خلال معركة اليامون، وتولى قيادة منطقتة بعده يوسف أبو درة، الذي وجّه وعبد الرحيم الحاج محمد تحذيراً إلى فخري عبد الهادي طالبين منه مغادرة البلاد والعودة إلى دمشق، الأمر الذي رفضه عبد الهادي. فالأرجح إذاً، أن عبد الرحيم كان في فلسطين حين دخلها فخري، لا خارجها، وكذلك الأمر بالنسبة إلى عارف عبد الرازق. بل إنّ أبو إبراهيم نفسه كان في فلسطين، وقد خاض معركة مع الجيش الإنكليزي في جبل الجرمق بين قرية بيت دجن ومارون بتاريخ ٢٣ أيلول/سبتمبر ١٩٣٨<sup>٨</sup>. وربما تكون رواية أبو إبراهيم هذه متعلقة باجتماع سابق بين هؤلاء القادة، تمّ في الخارج قبل استئناف الثورة، في أعقاب صدور قرار لجنة بيل بتقسيم فلسطين، ففي ذلك الوقت كان قادة الثورة هؤلاء في الخارج، وكان فخري غاضباً وقتها، على المفتي واللجنة المركزية للجهاد بسبب عدم حصوله على المال الذي يحتاجه.

ومن الخلط في المعلومات ما ذكره أبو إبراهيم من أنّ الشاعر الشعبي نوح إبراهيم، رثا يوسف أبو درة بقصيدة بعد أن شنقه الإنكليز، ويضع نزيه أبو نضال

جزءاً من هذه القصيدة في الحاشية ١٠٥٤، والصحيح أن الشاعر نوح استشهد بتاريخ ٢١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٨، أي قبل شنق أبو درة، الذي اعتقلته سلطات شرقي الأردن في ٢٥ تموز/يوليو ١٩٣٩<sup>٩</sup>، وأعدم لاحقاً.

• وهناك خطأ آخر وقع فيه أبو إبراهيم إذ يذكر أنّ الشيخ عبد الفتاح الشبلي، وهو من أقاربه في قرية المزرعة الشرقية، استشهد في حيفا بعد مواجهة مسلحة مع جاسوس، حيث قُتل الجاسوس، واستشهد الشبلي بعد مدة<sup>١١</sup>. والصحيح أنّ الشبلي لم يستشهد، بل مات ميتةً طبيعية في قريته، المزرعة الشرقية، خلال الثمانينيات من القرن العشرين.

• وقع خطأ في نص أزوجة نوح إبراهيم المشهورة: «دبرها يا مستر دل بلكي على إيدك تنحل» فقد وضع اسم بيل مكان اسم دل. وبيل هو رئيس اللجنة الملكية للتحقيق في أسباب ثورة ١٩٣٦، ولم يكن المخاطب في الأزوجة، بل كان المقصود الجنرال دل، وهو أحد قادة الحرب البريطانيين، وكانت الحكومة البريطانية قد عينته قائداً لجيشها في فلسطين، لإخماد الثورة.

• هناك تناقض في ذكر مصير المجاهد القسامي يوسف الزيباوي، ففي صفحة ٤٧ من الكتاب يذكر أنّه استشهد مع القسام، وهذا صحيح، لكنّه في الصفحة التالية يذكر أنّه استطاع مع الشيخ فرحان السعدي ويوسف أبو درة ومحمود سالم الخروّج من الطوق، الذي أقامه البوليس الإنكليزي حول يعبد.

• وأخيراً، يقع معدّ الكتاب في خطأ واضح في الحاشية رقم ١٢،<sup>١٢</sup> حين يذكر أنّ القسام ورشيد الحاج إبراهيم، أسسا معاً عام ١٩٢٧ حركة الإخوان المسلمين في حيفا، والصحيح أنهما أسسا جمعية الشبان المسلمين وليس حركة الإخوان المسلمين، كما أنّه يقتبس بكتافة من كتاب الوعي والثورة:

دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسام ١٨٨٢-١٩٣٥<sup>١٣</sup>، دون أن يشير إلى ذلك، بل يشير إلى موقع إلكتروني باسم كل الطرق.

٩ راجع ص ١١٩ - ١٢٠.

١٠ راجع زعيتر. مصدر سبق ذكره. ص ١٠٢-١٠٣.

١١ ص ١١٨.

١٢ ص ١٢٨.

١٣ أنظر: سميح حمودة. «الوعي والثورة: دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسام ١٨٨٢-١٩٣٥» (القدس: جمعية الدراسات العربية، ١٩٨٥).

٦ ص ٥٣-٥٤.

٧ ص ٧٧.

٨ راجع أكرم زعيتر. «الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥-١٩٣٩. يوميات أكرم زعيتر» (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٨٠)، ص ٤٥٧.